العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

الدكتور: سعيد سالم فاندي

لا يجد أي باحث عناءً في الاستدلال على أن القرآن كتاب هداية وأدب، لما يحس به المتلقي عند قراءته من تأثير في النفس بهديه، وجرس ألفاظه وعمق معانيه، لا سيما إذا كانت القراءة بوسيلة السماع، والانجذاب إلى المعاني القرآنية بالتدبر يحتاج إلى تهيؤ الذهن، وذلك يستدعي لفت انتباه المتلقي للجمال الصوتي بإيقاع الكلمات والجمل، من أجل ذلك كان انسجام أصوات الحروف والكلمات القرآنية من مظاهر إعجازه البياني، ضمن بقية الوجوه المعنوية والأسلوبية المعجزة، يقول عبد الخالق عضيمة: «أما إعجاز ألفاظ القرآن وأصوات كلماته، فيحس به من له أذن موسيقية، ولو كان أعجمياً لا يعرف اللغة العربية»[1].

(1) دراسة لأسلوب القرآن الكريم ـ القسم الثالث ـ المجلد 1 ـ القاهرة ـ مطبعة حسان ـ ص7.

فهو وجه إعجازي يناسب عالمية الخطاب القرآني، ومن دلائل التحدي للناس كافة، وليس للناطقين بالعربية دون غيرهم.

وقد أدرك ذلك دارسو الإعجاز البياني منذ القرون الأولى، منهم علي الرماني الذي رأى أن التلاؤم بين الأصوات، إذا انضاف إليه حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز للجيد الطباع، البصير بجواهر الكلام[2].

ولكن اهتمامهم بالمعاني والصور البيانية شغلهم عن مباحث الانسجام الصوتي، قال محمد مندور: «ينكر عبد القاهر كل مزية للفظ، وهو في ذلك يناقض آراء الجاحظ في الفصاحة، ولكن هذا في الحق إنكار مسرف لا نقره، ولا شك فيه أن لجرس الألفاظ قيمة ووقعاً إيجابياً كثيراً ما يعين الأديب على استنقاذ إحساسه»[3] وكان الرافعي أكثر من اهتم بهذا النوع الإعجازي من المحدثين: وقد قال في دلالة الإيقاع الصوتي على إعجاز القرآن: «فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وإنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه كمسيلمة جنح في خرافاته إلى حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها»[4].

وبنمو الدراسات الأدبية التي أظهرت امتزاج المعاني بالإيقاع، برز اتجاه دراسة الموسيقا الداخلية والخارجية في القرآن، من أجل تأصيله مَعْلَماً من معالم إعجازه، انطلاقاً من الإحساس بتلك الموسيقا المناسبة في مقاطع الكلمات والجمل القرآنية، يقرر محمد المبارك هذا المنحى فيقول: «وقد بلغت هذه

---

(2) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ تحق. محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، مصر ـ دار المعارف ـ ص89.

(3) في الميزان الجديد ـ مطبعة نهضة مصر ـ ط ثالثة ـ ص194.

(4) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب ـ ضبط محمد سعيد العريان ـ القاهرة ـ مطبعة الاستقامة ـ 1953ف ـ 2/ 227.

الخاصة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع، حيث تناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق»[5].

ويبرز العقاد أهمية الإيقاع في التشجيع على حفظ ألفاظ القرآن، مع ما في ذلك من جذب العقل إلى معانيه، والقلب إلى هدايته، فيقول: «يظهر أن قوالب الجمل، وأوزان الكلمات أثبت انتقاشاً في الذهن من حروفها، فربما نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها ثم ذكرها بوزنها»[6].

ولم يسع بعض المستشرقين المتأملين في القرآن إلا التسليم بأثره الصوتي في النفوس، يقول المستشرق هاملتون جب H. Gibb: «إن الجمال الفني هو رأس ما جذب العرب إلى الإسلام»[7].

ويقول بيير كرابون Pierre Cropon بعد استقراء صوتي لمجموعة من السور المكية: «إن هذه الملاحظات توضح لنا في الوقت ذاته التفسير الممكن لكلمة سورة التي لم يوجد لها تفسير مرضٍ، ونقترح أن تكون هي المعادل العربي للكلمة العبرية «شيرة» أي نشيد، وإذا كان المعنى الديني غير واضح، فإن السورة تبدو على الأقل كأنها نشيد... نشيد مقدس تعد الخصوبة الإيقاعية التي توجد فيها أثراً لازدهار حساسية موسيقية عجيبة، تتمثل على مستوى الأشكال في تعدد التفاعيل، والتقطيع الفقري، والائتلاف والتفرغ الإيقاعي؛ تنتهي إلى توازن عام»[8].

وعلى الرغم مما في هذه الكلمات من نظر، فإنها تصرح بالإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، إقراراً من المستشرقين المعتدلين بسمو هذا الكتاب وخلوده. وقد ساعدت اللغة العربية أبناءها على تربية التذوق الموسيقي للكلمات والجمل، فدفع بهم ذلك إلى معانقة الآيات القرآنية عند سماعها، يقول إبراهيم

---

(5) خصائص العربية ـ مطبعة نهضة مصر ـ 1960ف ـ ص39.

(6) خلاصة اليومية والشذور ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ 1970ف ـ ص34.

(7) أحمد أبو زيد ـ التناسب البياني في القرآن ـ الرباط ـ كلية الآداب ـ مطابع النجاح 1992ف ـ ص245.

(8) المصدر نفسه، ص246.

أنيس في الاعتداد بخصيصة الموسيقا الصوتية في اللغة العربية: «فاللغة العربية من اللغات التي عنيت بموسيقا ألفاظها وعباراتها في كل العصور»[9]، ويعلل ثراءها الموسيقي بقوله: «وفي رأيي أن ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية، حين كان الأدب أدب الأذن، لا أدب العين»[10].

ويمكن أن نجمل القول في هذا الضرب الإعجازي حول ثلاثة محاور على حسب تقسيم الكلام من مقاطع الكلمة الواحدة، إلى مجموع الكلمات في العبارة إلى الانسجام بالتوافق بين نسق اللفظ ونظام المعنى ومقاصده:

1 ـ التناغم في الكلمة:

إن اختيار القرآن كلمات دون غيرها، ليس من قبيل التصرف التلقائي، ولكنه مع مراعاة دقة مدلولها، يقع الاختيار عليها لتناسب حروفها، وانسجام إيقاعها؛ مما لا ترقى إليه أداءات كلمة أخرى، فنغمة النطق ملحظ من ملاحظ الاختيار في القرآن في توظيف يتسق مع جمال المعنى ودقته. ولا شك في أن المتلقي للأدب بنثره وشعره، ينجذب إلى بعض التعبيرات الشعرية أو النثرية لحسن إيقاع حروفها في كلماتها، وإن تقاربت مع تعبيرات أخرى في التصوير والتأثير، فكان أسلوب القرآن متسماً بحسن إيقاع حروف كلماته، لكي ينسجم الإيقاع في جمله وآياته، وفي النغم الشامل لكل سورة من سوره، يقول مصطفى الرافعي في هذا المقصد الجمالي المشوق: «وأصوات الحروف إنما تتنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها من نوع من التركيب وجهة من التأليف يمازج بعضها بعضاً»[11].

وقد كان التلاؤم بين حروف الكلمة الواحدة من أبرز مظاهر الإيقاع الموسيقي للفَّظة الواحدة الذي يتضاعف جماله عند اقترانها بغيرها، وكان

---

(9) دلالة الألفاظ ـ الأنجلو المصرية ـ ط رابعة ـ 1980ف ـ ص172.

(10) المصدر نفسه، ص195.

(11) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ القاهرة، مطبعة الاستقامة ـ 1965ف ـ ص213.

الرماني من الملتفتين إلى هذا الملحظ، فقد قسم الحروف إلى ثلاثة أوجه: متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا، ورأى أن القرآن يمثل الوجه الثالث، وأبرز فائدته فقال: «حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس، لما يَرِد عليها من حسن الصورة، وطريق الدلالة»[12] وليس جمال الإيقاع في الكلمة من ترك الحروف المتنافرة عندما تتقارب مخارجها فحسب، ولكن خفتها في مسارها بين الكلمات قد يحقق الانسجام، ولو كانت من مخارج متحدة أو متقاربة، فإذا كان أكثر اللغويين والأسلوبيين يرى أن الاعتدال بين مخارج الحروف قرباً وبعداً هو علة تناسبها، والتباعد الشديد، أو المبالغة في التقارب[13]، فإن القرآن يؤكد أن العلة الجامعة هي انسجام الصوت المسموع في الأذن[14]، بغض النظر عن تقارب الحروف أو تباعدها أو الاعتدال بين ذلك، يقول عمر السلامي مؤيداً هذا الرأي: «إن الحروف لتحدث إيقاعاً، لا تلمسه في الكلام العربي عند تكاثفها، وإن هذا الإيقاع؛ ليتناغم في حسن التوزيع والدقة في النطق والإخراج، ونلمس هذا في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾[15].

. . . إننا نشعر عند النطق بتكاثف حرف الميم بخفة في بعضها، كما في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وبثقل وسط يكاد يعسر عنده النطق ويتعثر من أجله اللسان في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ إلا أن النطق الهادئ البطيء يجنبنا التعثر»[16].

فعلى الرغم من توالي الميمات ست مرات في المقطع الكلامي: «أمم ممن معك»، الميمات المنطوقة أصالة، والمنقلبة عن النون بالإدغام، فإن الانسجام الإيقاعي لم يزدد إلا قوة في التأثير والتناسب.

---

(12) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ ص87.

(13) ابن جني: سر صناعة الإعراب ـ مصر ـ مطبعة البابي الحلبي ـ 1954ف ـ ص99.

(14) المثل السائر ـ تحق. أحمد الحوفي وبدوي طبانة ـ مصر ـ مطبعة نهضة مصر ـ 1962 ـ ص322.

(15) سورة هود، الآية: 48.

(16) الإعجاز الفني في القرآن ـ تونس ـ مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله. 1980ف ـ ص243.

وقد تكررت حروف متماثلة في كلمة واحدة، ولا يؤدي ذلك إلا إلى مزيد من الانسجام، لأن تكرار حرف فيها يقابل تكرار حرف آخر من جنسه يخالف المكرر الأول ويبتعد منه في المخرج، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾[17] فتكرار الكاف والباء كليهما مرتين صار مستحسناً في جرس الكلمة؛ لتباعد المخرج بين الكاف والباء، فالكاف تخرج من أقصى الحنك فهو طبقية، والباء تخرج مما بين الشفتين، فهي شفهية، وهناك تباعد بيّن بينهما، ساعد على سعة الذبذبة التي فرضت التباطؤ في نطق الكلمة، فأخذت الكلمة تستقر في توازن يحفظ لها الانسجام على الرغم من تكرار حرفيها، وبمثل ذلك نحس في نطق كلمة [عسعس] من قوله تعالى تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[18] فالعين حرف حلقي، والسين حرف لثوي، ومثل ذلك يقال في الكلمة القرآنية حصحص: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[19]، واستعمل القرآن الكريم كلمات دون غيرها مع التقارب في المعنى الذي قد يحافظ على دقته بتغيير سياقه، ولكن حرص القرآن على الجمع بين عذوبة جرس الكلمة وإيحائها، جعل الله تعالى كلماته في هيئات ألطف في الإيقاع، فقد اختار الله كلمة «فاستعصم» بدلاً من «امتنع»؛ لأنها أعذب وأوفق بالجمال الحسي والمعنوي في قصة من منحه الله شطر الحسن، فقال على لسان امرأة العزيز، وهي تتحدث عن يوسف الكريم الجميل: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[20]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[21] فقال: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ في هذه الآية، وقال في آية أخرى: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[22] فاستعمل فعل الكسب في آية فاطر، حتى لا يثقل

---

(17) سورة الشعراء، الآية: 94.

(18) سورة التكوير، الآية: 17.

(19) سورة يوسف، الآية: 51.

(20) سورة يوسف، الآية: 42.

(21) سورة فاطر، الآية: 45.

(22) سورة النحل، الآية: 61.

على السمع بتكرار الظاء بين الفعل وكلمة ظهرها، واستخدم فعل الظلم عندما عبر بالإضمار في قوله عليها، فأمن ذلك الإثقال، كما دفع الثقل فيما بين الحروف المقطعة في أوائل السُّوَر، ويتضح ذلك في صدر كل سورة بدأت بتلك الحروف، فلا يتكرر حرف مع ما يجانسه إلا مشفوعين بحرف أو حروف أخرى كما في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾[23] فقد اجتمع حرفا حلق وهما الحاء والعين، ولكن فصل بينهما بحرف شفوي، وهو الميم، وإذا وقع النطق بحرفين متماثلين على التوالي، لا يكون أحدهما إلا ساكناً والآخر متحركاً، كما في النطق باللام مختوماً، وبالميم بعده في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾[24].

ولهذه الحروف خصيصة إيقاعية تهيّئ المتلقي، وتستحثه على استقبال النص المركب من هذه الحروف وغيرها، ولكن ما تركبت منه هذه الحروف أكثر من نسبته، فيستأنس السامع به في صدر السورة حتى يألف تكراره في غضونها، لا سيما إذا كانت السورة طويلة كما في البقرة وآل عمران وسور المئين؛ لذلك لم يرد الاستهلال بالحروف المقطعة في قصار السور، على الرغم من أن بعضها احتوى على حرف واحد أكثر من حروف أخرى، كما في سورة الكوثر التي تكررت فيها الراء أكثر من الحروف الأخرى، وكما في تكرر القاف في سورة الفلق، وتكرر الباء في سورة المسد، وتكرر السين في سورة الناس، وتكرر الفاء في سورة قريش، وتكرر اللام في سورة الفيل، والهاء في الهُمَزَة، والدال في سورة الإخلاص. ولعلنا نلاحظ أن مقطع الحروف المقطعة يتناسب مع طول الآيات في السورة المصدرة بتلك الحروف وقِصَرها، كما أنه يدل في كثير منها على طبيعة إيقاع فواصل الآيات، فسورة (ق) تبدأ بهذا الحرف المفرد وهو من حروف القلقلة؛ لتناسب قصر آياتها، وكونها في أكثرها مختومة بحروف القلقة من دال أو باء أو جيم، وسورة القَصَص مبدوءة بـ ﴿طسٓمٓ﴾ فهي ثلاثة حروف والثاني والثالث ممدوان؛ ليناسبا طول نغمات

(23) سورة الشورى، الآيتان: 1 و2.

(24) بداية: البقرة، آل عمران، الأعراف، الرعد، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

الآيات، وحرف اللين الياء الذي انضم إلى النون في فواصل آياتها إلا الآية 16 التي ختمت بالرحيم، والآية 22 التي ختمت بالسبيل، والآية 23 التي ختمت بكبير، والآية 24 التي ختمت بفقير، والآية 28 التي ختمت بوكيل، والآية 79 التي ختمت بعظيم، وجميع الآيات كانت خواتمها مسبوقة بحرف مد وهو الياء، ونلاحظ في سورة (ص) التوافق النغمي بينها وبين حرف الصاد الذي تَصدَّرها، فجاءت آياتها قصيرة مقفلة المقاطع، وعلى الرغم من أن سورة (طه) بدأت بحرفين فإنهما ناسبا قصر آيات السورة، لقصر الإيقاع في مدهما، ونتحسس في سورة مريم طول نغمات الآيات في اختتام كثير منها بالمد في الياء والألف معاً في كلمة واحدة مثل: «زكريا» «بغيا» «شقيا» وغيرها؛ ليتوافق ذلك مع طول النغم في الحروف المعجمة التي تصدرت السورة وهي ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[25]، وبمثل ذلك يمكن أن ننظر إلى توسط طول النغم فيما بين آيات السورة وحروفها المقطعة، كما في سورة البقرة وآل عمران ويونس وهود وغيرها، مع ملاحظة أن طول نغم الآية لا يقاس فقط بمقدار عدد الكلمات، بل بطبيعة المد والقصر في حروفها، فقد تكون الآية متوسطة في عدد كلماتها، طويلة في إيقاعها لكثرة المد في حروفها كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[26]، ولعل زيادة الميم في مفتتح سورة الرعد ﴿الٓمٓرٰ﴾ مع أن نظيراتها في ترتيب المصحف «آلر»، يرجع في أحد أسبابه إلى طول نفس هذه السورة في سعة نغمات آياتها، كما ينكشف ذلك بالمقارنة بينها وبين سورة إبراهيم والحِجْر وحتى سورة يوسف التي قبلها.

2 ـ الانسجام في العبارة:

يسود انسجام في النغم بين مجموع الكلمات القرآنية في الآية الواحدة، وكذلك بين مجموع الآيات، فإذا كانت الآيات مقفلة المقاطع، قصيرة الوقع، تعانقت كلماتها في جرس موسيقي متسق لا نشاز فيه، وإن تحول الإيقاع من

---

(25) سورة مريم، الآية: 1.

(26) سورة الرعد، الآية: 39.

القصر إلى الطول في بعض المقاطع، فإنه انتقال مؤقت للتنويع، وسرعان ما يرجع النغم إلى طبيعته السائدة في السورة، وكذلك الأمر إذا كانت الآيات طويلة النغم، فإنها قد تقصر في بعض مقاطعها، ثم تأوي إلى أصل انطلاقها في الطول، ففي سورة النجم نلاحظ قصر البناء الإيقاعي في الآيات، وانتهاء أكثرها بالألف المقصورة، ولكن قد يتغير النظم الصوتي إلى الطول ثم يعود إلى تقارب الذبذبات كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[27]، ثم يرجع النغم إلى أصله، فيقصر في الآية التالية للآية الطويلة السابقة: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾[28] ويستمر النسق النغمي في انسجام ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿34﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿35﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿36﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿37﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[29] ويطول نفس النغم في سورة النحل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[30]، ثم يعقب طول الآية، وطول عباراتها المكونة لها، آية قصيرة تتكون من عبارتين قصيرتين ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[31]، ثم يستأنف طول النغم في الآية اللاحقة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[32].

وتلحظ تناسب المقاطع الصوتية في الآيات، في الانسجام بين الحروف الساكنة والمتحركة، والمد والقصر، فترتيب المقاطع ينساب في عذوبة وسلاسة تجعل السامع يطلب الاستزادة من السماع للقرآن، كلما انتقل من مقطع إلى مقطع، ومن عبارة إلى عبارة، ومن آية إلى أخرى مساوقة لها، وقد يرد ذلك

---

(27) سورة النجم، الآية: 32.

(28) سورة النجم، الآية: 54.

(29) سورة النجم، الآية: 34 ـ 38.

(30) سورة النحل، الآية: 116.

(31) سورة النحل، الآية: 117.

(32) سورة النحل، الآية: 118.

التناسب بين المقاطع في جزء من آية على نسق، ويتحول في جزء من تلك الآية إلى نسق آخر؛ ليخالف الشعر، ويتفوق عليه في التنوع الإيقاعي، كما يتفوق عليه في الجمع بين جمال الصورة، وصدق الفكرة صدقاً يطابق الحق والواقع، الشعر تخييلات وتفعيلات مكررة لا سيما شعر بحور الخليل، فالقرآن تنتقل فيه العبارات من نسق موسيقي إلى نسق آخر، ومما يدل على انسجام مقاطعه أن عبارات موزونة على أوزان الشعر تخللت بعض الآيات، وقد تشمل آية بتمامها، ولكنها لا تعد شعراً، لأنها تتحول بعد ذلك إلى وزن آخر لا يكرر التفعيلات تكرارها في البحر الشعري، وقد اقتطف بعض الشعراء عبارات قرآنية وضمنوها بعض أشعارهم، كما فعل ابن الرومي عندما قال:

لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي

لقد أنزلت حاجاتي (بواد غير ذي زرع).

حيث كان الشطر الآخر من البيت الثاني مضمناً قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[33]، ويمكن أن تضمن عبارة قرآنية شطراً كاملاً لبيت على وزن من البحور مما يدل على نوع من أنواع التوافق الإيقاعي في القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًا﴾[34] فهي توافق البحر البسيط وكما في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾[35]، فهي توافق في نغمها بحر الرجز، ومما وافق مجزوء الرمل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[36]، وهي آية كاملة، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[37]، ومما وافق الوافر بعرضه وضربه وهو جزء آية قوله تعالى: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾[38] ومما جاء على ما يوافق

(33) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(34) سورة الأنفال، الآية: 44.

(35) سورة الصف، الآية: 13.

(36) سورة آل عمران، الآية: 92.

(37) سورة الإخلاص، الآية: 1.

(38) سورة التوبة، الآية: 4.

وزن الكامل وهو جزء آية، قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[39]، ومما جاء وفق الخفيف قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[40]، ولكن القرآن مع انسجام إيقاعه خلال عباراته ينوعها بزيادات، أو بحذف حروف في مجموع الآيات، حتى لا تكون على وزن شعري مكررة في نسق واحد، فلا تكون مشابهة لتكرار الوزن بين الأبيات في القصيدة الواحدة، ليناى القرآن عن الشعر في الشكل كما سما عنه في المضمون، ففي سورة المسد كلمات لو حذفت لجاءت السورة كلها على مجزوء الرجز، ولكن الله تعالى أنزلها بتلك الصيغة الكريمة، لتخالف الشعر في وزنه إذا تعددت الآيات، ولتكون أدق وأبلغ في المعنى في تلك الزيادة أو ذلك الحذف أو التقديم والتأخير، وورد الوزن موحداً بين آيتين، ثم خالف وزنهما في الآية الثالثة، كما في صدر الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[41]، ومعلوم أن الكلام لا يكون شعراً إلا إذا جاء في مجموعة من الأبيات، وليس في مقدار بيت واحد، وقد وافقت الآيتان السابقتان وزن الخفيف، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾[42] جاءت الآيات الثلاث على مجزوء الرجز، ولكن الآية الرابعة خالفت بحركة حرفين متجاورين في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[43]، ولو سكنت القاف، وحركت السين لجاءت على وزن الآيات الثلاث، وانظر في ذلك ملاحظاً صدر سورة العاديات، ولاحظ توافق الوزن بين الآيات الخمس الأولى من سورة المرسلات بحيث أن كل آية في هيئة شطر، فهي لا تتعدى وزن بيتين ونصف من الشعر، مما لا يُلْحِق القرآن أيضاً بشكل الشعر.

ويسود التوازن بالتكرار لبعض العبارات بين الآيات في بدايتها ونهايتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ التي تكررت في بدايات ست آيات

---

(39) سورة الفرقان، الآية: 31.

(40) سورة سبأ، الآية: 15.

(41) سورة الماعون، الآية: 1 و2.

(42) سورة الذاريات، الآية: 1 ـ 3.

(43) سورة الذاريات، الآية: 4.

متتالية[44]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ حيث ختمت بها الآية الثانية، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ التي ختمت بها الآية الثالثة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ في ختام الآية الرابعة، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في آخر الآية الخامسة، وتأمل الإيقاع الموحد لنغمات مجموع آيات سورة الشعراء في الآية المكررة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقوله في الآية المكررة بعدها: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد تكررت الآيتان في ثمانية مواضع، وفي السورة نفسها تكرر قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ثمانية مواضع أخرى، وبمثل ذلك توحد الإيقاع العام بتكرار: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمٰن إحدى وثلاثين مرة، وكذلك قوله تعالى في سورة المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث تكررت عشر مرات.

وقد يكون التكرار في الآية الواحدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[45]، وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿3﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[46]، وكقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿34﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[47]، وذلك التكرار مع كونه يقصد إلى أغراض معنوية، فهو أثر صوتي يجذب الأذن والقلب إلى الرغبة في إتمام قراءة السورة، أو مجموع الآيات التي التحمت فيها الوحدة المعنوية مع الوحدة الإيقاعية، وختمت أكثر فواصل الآيات بالياء والنون، أو الياء والميم، والياء مد لزيادة التطريب. يقول سيبويه في الترنم في لغة العرب بحروف المد: «أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو وما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت»[48]. ومن دلائل توكيد اتصاف السور القرآنية بوحدة الإيقاع كون النون والميم أكثر الحروف التي ختمت بها آيات القرآن مع

(44) الآيات: 20 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 25 من سورة الروم.

(45) سورة فاطر، الآية: 43.

(46) سورة التكاثر، الآية: 3 و4.

(47) سورة القيامة، الآية: 34 و35.

(48) كتاب سيبويه ـ مصر ـ ط بولاق الأميرية ـ 1317هـ ـ 2/ 298.

سبقهما بالواو أو الياء، وذانك الحرفان «هما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها، وكذلك المد فهو الطبيعي في قرار الصوت»[49].

3 ـ التوافق مع المعنى:

إن للإيقاع الصوتي القرآني أثراً في المعنى الذي يدل عليه النص بمنطوقه، أو بمفهومه، أو بإيحائه وإشاراته، ففي الآيات الدالة على الوعيد تسمع الكلمات تقرع السمع قرعاً، وفي الوعد تستظل بأنس الكلمات وسلامها، وفي وصف حزن في قصة أو وصف مشهد فرح، وإيقاع الكلمات والجمل والسور في وحداتها المعنوية، يوافق المعنى الجزئي في الكلمة، أو المعنى الكلي في المعاني الجامعة التي تقصد إليها السورة القرآنية.

فظاهر في القرآن تأثير الكلمات المختزنة بالإيقاع المناسب للمعنى، ذلك من تمام أسلوبه في تحقيف إظهار البرهان، وتفعيل الإرادة، وتحفيز الوجدان، ويختار القرآن كلمات دون غيرها، ففي حديث القرآن عن القيامة يصور المعنى بأداة من أدوات التصوير للمعنى المخفي عن العيان والأذهان وهو الإيقاع، فيقول تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[50]، فاختيار كلمة تحوي القاف والعين، وهما حرفان قويّان[51]، وتكرار الكلمة ثلاث مرات فيه دلالة تضاف إلى المدلول المعنوي المستفاد من الوظيفة اللغوية للكلمة. وقد يتوهم المتعجل في نظرته أن القرآن خالف الفصاحة في اختيار كلمات تكررت فيها بعض الحروف، وهو يغفل عن أهمية ذلك في التوافق بين الإيقاع والمعنى، ومع ذلك فهي غير مستثقلة في النطق والسمع، فكلمة (النفاثات) يتقارب فيها مخرجا الفاء والثاء ومع ذلك فهي أفضل ما يعبر عن حركة الساحرات من كلمة

---

(49) الرافعي ـ تاريخ آداب العرب ـ 2/ 227.

(50) سورة القارعة، الآيات: 1 ـ 3.

(51) حرف القاف من حروف القلقة ومخرجه لهوي ينتج من عملية عضوية معقدة، والعين حرف حلق، ونطقه يجعل الأوتار الصوتية في حالة تذبذب.

النافخات؛ لما في الثاء من احتكاك الهواء بحافات اللسان والأسنان احتكاكاً مسموعاً[52].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[53]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝5 إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[54]، وفي سورة الناس تتكرر السين في كل آية، لتوافق المعنى مع ما في التكرار من توهم الإثقال على السمع، ففي آية التين لم يقل أسفل الهالكين، ليدل تكرار السين على الهبوط والانحدار، وفي سورة الشرح لم يقل إن بعد العسر فرجاً أو بعد الضيق ليدل باجتماع العين مع السين على حركة الخروج من الشدة إلى الفرج، وتكررت السين في سورة الناس في كل آية حتى إنها تكررت في الآية الرابعة والخامسة مرتين، لتدل على حركة الإيحاء الشيطاني، وعلى الرغم من تكرار القاف في سياق واحد مرات متتابعة، فإنها أفضل ما يصور المعنى المعبر عن الحركة القتالية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝190 وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[55] فتكرار الفعل الدال على القتل وصياغته بحروف يتكرر فيها حرف القاف تصور قعقعة السلاح وحركة الحرب.

يقول عمر السلامي في سر تكرار الضمير المتصل «كم» في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝34 ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[56] «وإن الإيقاع الذي تحدثه «كم» بجرسها الذي يغلق الشفتين، يوحي بصد النفس ومباغتتها بأسلوب هادئ... وإن «كم» تحمل في إيقاعها نغمة مشوبة بالدمدمة

(52) عبد الحميد الهادي ـ الدراسات الصوتية عند علماء العربية ـ طرابلس ـ كلية الدعوة ـ 1992 ـ ص37.

(53) سورة التين، الآية: 5.

(54) سورة الشرح، الآية: 5 و6.

(55) سورة البقرة، الآية: 190 و191.

(56) سورة الجاثية، الآية: 34 و35.

والزمجرة، وهذه النغمة تعكس على النفس، فتهزها هزاً؛ لتسكتها وتطرحها أرضاً مغشياً عليها»[57].

وتتناسب حروف فواصل الآيات في إيقاعها وزناً أو جرساً، لتوحي بالمعنى العام للسورة التي انتظمت في سلكها، كما هو ملحوظ في فواصل سورة طه، المختومة بالألف المقصورة في نغمات قصيرة أو متوسطة بين الأيات؛ لتدل على معنى التذكرة والاعتبار، وكذلك الشأن في سورة النحم، وختمت فواصل سورة القمر بالراء المفخمة في نفس نغمي طويل ولكنه مقفول في آخره لا يحوي حرف مد، بل هو ساكن، ليدل على المعنى العام للسورة، وهو المصرح به في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[58] هذه الآية التي تكررت أربع مرات، ثم جاءت مرتين في صورة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[59]. وهناك توافق عجيب بين تعقيب الآيات المتحدثة عن الجن، وموضوع تلك السورة التي اشتق اسمها من دلالة الجن، وقد ختمت كل آية منها بألف الإطلاق لتدل على خصيصة مميزة للجن عن الإنس وهي سرعة الحركة، وقدرة أكثرهم على التحليق في آفاق بعيدة.

وذلك التناسب حاصل بين الوحدات المعنوية داخل السورة الواحدة، مع عدم الإخلال بالتوافق مع المقصد العام للسورة، فإن الإيقاع في سورة مريم يستمر طويلاً مختوماً بالياء والألف حتى ينتقل القرآن إلى طَرْق قضية أخرى بعد الآية (33)، وهي مناقشة دعوى النصارى بألوهية عيسى، حيث يتحول الإيقاع إلى ختم الآيات بالواو والنون، ثم يعود القرآن في الآية (36) إلى ختم الآية بالياء والميم، ويعود بعد آيتين إلى الياء والنون، وبعد الآية (41) تختم الآيات بالياء والألف عوداً إلى أصل بناء الآيات الأولى، ثم ينتقل بعد الآية (75) إلى ختم الآيات بالدال والألف، جاء ذلك تلائماً مع تنوع موضوعات السورة، التي

(57) الإعجاز الفني في القرآن ـ ص231.

(58) سورة القمر، الآيات: 16 ـ 18 ـ 21 ـ 30.

(59) سورة القمر، الآيتان: 37 و39.

يجتمع نغمها في نفس طويل ممدود غير مقفل، كما يتوحد موضوعها في البرهان على قضايا، والتصوير لمشاهد وقصص كلها تدور في فلك التوحيد. وفي سورة الفرقان نلاحظ أن القرآن تحولت فواصله إلى نغمات أكثر هدوءاً وتؤدة وخفة؛ لأن الحديث أصبح في صفات المؤمنين، وهكذا الشأن في جميع سورة القرآن، فإن كل سورة منها تحمل إيقاعاً عاماً يضم في وحداته المعنوية إيقاعات مختلفة تتسق مع الإيقاع العام لكل سور «إن وحدة التناسق التي تسود آي القرآن وسوره، نلمسها في إيقاعه؛ لأن الإيقاع يوحي بجو السورة والمعنى العام لها، ويصح أن نقول العكس أيضاً في أن محتوى السورة وجوها يوحي بتنوع الإيقاع أيضاً»[60].

وبعد فإن من الإعجاز البياني القرآني وقع حروف كلماته، ونسق جمله وآياته الذي ينسجم مع دلالة المعنى، ولعل المتخصصين في الدراسات الصوتية ستكون لهم اكتشافات في هذا السبيل.

(60) الإعجاز الفني في القرآن ـ ص257.